الفصل الثالث

حياطة الإسلام للأسرة بكل أسباب التكريم والتقويم لبقاء الحياة الزوجية

إن الإسلام بعدما حدد للزوجين المعيار الذي يتخذانه عند زواج أحدهما بالآخر، بيّن السياج والإطار الذي وضع داخله الأسرة المسلمة، فاهتم بأسس تكوينها وأسباب دوام ترابطها وأدائها لوظيفتها على خير وجه وأكمله، فالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما تركا صغيرة ولا كبيرة، يكون فيها سعادة الأسرة واستقرارها، إلا بيَّناها تفصيلاً أو بيَّنا الأصل الذي تندرج تحته.

والإسلام لم يكتف بتوضيح حقوق وواجبات كل من الزوجين حيال الآخر، فهذا وحده لا يكفي بالنسبة لأخطر نواة في بناء المجتمع. إنما اهتم القرآن والسنة بوضع الأسرة كلها في بوتقة تذوب فيها كل الصفات المذمومة من أثرة وقهر وقسوة، فتتبخر من حياتها وتصفو من شوائب الكدر والنكد والتعالي والإهمال، إلا ما كان يطفو

ثم لا يلبث أن يزول ويعود إلى حالته السوية.

فنرى القرآن الكريم يبعث في نفس كل من الزوجين الشعور بأن كلاً منهما ضروري للآخر ومكمل له، فيقول للرجل: إن المرأة فرع منك وأنت أصلها، ولا غنى لأصل عن فرعه. ويقول للمرأة: إن الرجل أصلك وأنت جزء منه ولا غنى للجزء عن أصله. ولنقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: 189]، فالنفس الواحدة: هي نفس آدم، وزوجه: هي حواء.

والزوجان يعيشان حياتهما الزوجية في ظل تعاليم الإسلام في انسجام واتحاد، يعلق كل واحد منهما بصاحبه، ويجعل من الاثنين وحدة في كل شيء، وحدة شعور، ووحدة عواطف، ووحدة مضجع، ووحدة رؤية لجمال الحياة، ووحدة أسرار متبادلة، ووحدة آمال، ووحدة عمل، ووحدة تفاهم، ووحدة إنتاج للذرية ورعاية لها.

ومن عظمة القرآن وجماله وجلاله وكماله، نجد كل هذه المعاني الجميلة ـ ما حصرناه منها ـ وما لم نحصره متمثلاً في آية من القرآن الكريم عدد كلماتها ست كلمات، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ

لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴿١٨٧﴾ [البقرة: 187]، ذكر القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» تفسيراً لهذه الكلمات فقال: أصل اللباس في الثياب، ثم سمي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه «لباساً» لانضمام الجسدين وامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب، قال النابغة الجعدي الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها تداعت عليه فكانت لباساً

وقال بعضهم: يقال لما ستر الشيء وداراه: لباس. فجائز أن يكون كل واحد منهما ستراً لصاحبه عما لا يحل. كما ورد في الخبر. وقال الربيع: هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن. وقال مجاهد: أي سَكَنٌ لكم، أي يسكن بعضكم إلى بعض. وقال أبو عبيد وغيره: يقال للمرأة: هي لباسك وفراشك وإزارك.

وبذلك يتضح لنا: أن العلاقة بين الزوجين هي علاقة امتزاج والتصاق، وهي أقوى علاقة اجتماعية لاحتوائها على ناحيتين: ناحية غريزية فطرية، وناحية عاطفية وجدانية. وإذا ما التقت الغريزة والعاطفة فثم أقوى رابطة نفسية.

والقرآن الكريم يصور ارتباط الغريزة والعاطفة بين الزوجين، ويشير إلى أنه آية من آيات الله ونعمة من نعمه، التي لا تعد ولا تحصى فيقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ

خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الروم: 21].

فسكون الزوج إلى زوجه والتصاق المرأة بزوجها، أمر فطري غريزي، وما بينهما من مودة ورحمة أمور عاطفية، تتولد وتنشأ عن الجانب الغريزي وغيره.

فالرجل ربما ركن إلى امرأة سواء عن طريق الحلال أو الحرام، والمرأة قد تلتصق بأي رجل عن طريق حلال أو حرام بدون وجود عاطفة المودة والرحمة؛ أما أن يسكن الرجل إلى امرأة وتلتصق المرأة برجل، مع وجود المودة والرحمة؛ فهذا لا يتم إلا من خلال ربط كل منهما بالآخر، وشده إليه برباط مقدس، هو رباط الزوجية، فيكونان بذلك زوجين سعيدين مستقرين، ويأتي هذا الاستقرار ابتداء من خلال التوافق الروحي والاجتماعي والثقافي، والتوافق في الآمال والآلام، وبالتوافق في التربية والأخلاق والأمزجة والأهواء، وغير ذلك مما يعد من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

لذا كان مهماً جداً أن يرى كل من الزوجين صاحبه قبل الزواج، وأن يحصل نوع من التعارف المسموح به

شرعاً، حتى يشعر كل منهما أنه موافق للآخر، وقد رضي كل منهما بصاحبه وأحس أنه سكن إليه واطمأن، ووجد عواطف المودة والرحمة بينهما؛ لأن ذلك أحرى لأن تدوم العشرة بينهما. ولقد جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأتاه رجل، فأخبره: أنه تزوج امرأة من الأنصار. فقال له رسول الله ﷺ: «**أنظرت إليها؟**» قال: لا. قال: «**فاذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئاً**»[1]. أخرجه مسلم، والنسائي.

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ أنه خطب امرأة. فقال له النبي ﷺ: «**انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**»[2].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**»[3]، قال: فخطبت امرأة

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 3470)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3246) و(الحديث: 3247)، و(الحديث: 3234).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1087)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3235)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1866).

(3) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 2082).

فكنت أتخبأ لها، حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها. أخرجه أبو داود.

والأمر لا يقف بهما عند هذا الحد، بل يجب على الزوجين بعد الزواج، أن يحرصا على ديمومة هذه العواطف وتأجيجها، لتظل شجرة حياتهما الزوجية وارفة الظلال، وتؤتي أكلها بإذن ربها بإنجاب الذرية الصالحة السعيدة، والعيش في جو سعيد مريح.

وفي القرآن سُور مثل «سورة النساء» التي نالت فيها المرأة حقوقاً لا يمكن أن تحلم بمثلها، ولا يمكن أن يجود عليها ببعضها أحد غير الله. ونلاحظ أن في هذه السورة (سورة النساء) آية تحرك مشاعر الرجل نحو المرأة بالعطف والرحمة إلى أبعد حد. وفي نفس الوقت تضعه أمام عهد قوي وميثاق غليظ أوجبه على نفسه، هذا الميثاق هو عقد الزواج وما يترتب عليه من آثار. وتحذره من أن يفرط في هذا العقد أو في أثر من آثاره، وإلا أصبح ناقضاً للعهد. فضلاً عن هذا فالآية تثير في نفس كل من الزوجين الشعور بأخص خصائص العشرة الزوجية، وأن كلاهما قد أفضى إلى صاحبه بما عنده من أسرار، وتكشف، وشهوة، والتصاق، وامتزاج. . . إلخ.

هذا والأمر قد ذكر في الآية الكريمة في حالة انقطاع

العشرة الزوجية، فما بالك والأمر أمر وفاق ودوام للعشرة.

وإتماماً للفائدة، نذكر الآيات التي ذكرت في سورة النساء توضيحاً لما ذكرناه وتدليلاً له. يقول مولانا تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: 20، 21].

أما سورة النور والطلاق والأحزاب، فنجد فيهن تنظيماً شاملاً لقانون الأسرة المسلمة، ومن رام مزيد بيان فليرجع إلى تفاسير تلك السور، وما يمكن أن يستنبط منها من أحكام فقهية.

من هذا كله ندرك الصورة المشرقة التي وضع الإسلام الزوجين فيها، وندرك الإطار والسياج الذي أحاط الأسرة المسلمة به، بكل أسباب التكريم والتقويم.